حبيب صادق، في كتابه: قضايا ومواقف

العودة إلى القاموس السياسي/الثقافي الحقيقي

صدر، مؤخَّراً، عن دارالفارابي، كتاب: «قضايا ومواقف»، لمؤلِّفه حبيب صادق. يعرض المؤلِّف، في كتابه هذا، آراء ومواقف في شؤون الفكر والأدب والحياة، ويناقشها، بغية الوصول إلى بلورة رؤية إليها. يتضمَّن الكتاب مقدِّمة، كتبها محمد دكروب وستة أبحاث، تتخذ أربعة منها شخصيات فكريَّة وأدبية محوراً للدراسة.

موضوعات الكتاب

في الموضوع الأوَّل، يرسم المؤلِّف ملامح من سيرة المفكِّر حسين مروة، ويشير إلى منجزاته العديدة في النقد والتاريخ الأدبيين. ويركِّز، بخاصة، على دراسته للتراث الفكري العربي ـ الإسلامي، المعروفة باسم: «النزعات المادِّية في الفلسفة الإسلامية»، ومكانها في الصِّراع الثقافي الاجتماعي الراهن.

وفي الموضوع الثاني، يدخل المؤلف على رئيف خوري، من باب «موقفه الريادي السديد» من الحركة الصهيونية، في منابتها وشبكة علاقاتها، وفي أهدافها وممارساتها. وإن كان يكتفي بهذا الجانب من جوانب سيرة خوري، فلأن الإحاطة الشاملة، بهذا «المثقف العربي الثوري والمفكر الطليعي والأديب والخطيب والشاعر، ليست ممكنة إلا إذا توافر شرطان»، يصرِّح المؤلِّف بأنَّه لم يكن يمتلكهما حين إعداد دراسته. وفي هذا التحديد الدقيق لموضوع البحث والتصريح الواعي بحدود القدرة، نلمس أخص ميزات الباحث المنهجي، هذه الميزات التي سوف نتحدَّث عنها لاحقاً، مكتفين، هنا، بالإشارة إليها فقط.

وفي الموضوع الثالث، يحاول المؤلِّف، في ضوء فكر مهدي عامل، الرؤية إلى مستقبل لبنان من موقع حاضره، ممهِّداً لمحاولته بملاحظتين هما: صعوبة هذه المحاولة ووحدة الزمن التاريخي، تجعلانه يقرِّر أنَّ ما سوف ينتهي إليه من نتائج ليس سوى أفكار أولية همُّها أن تستثير أسئلة، أو تستدعي نقاشاً يثري تربة المعالجة، ويساعد على إنتاج معرفة علمية في هذا المجال.

مرة أخرى، نلمس خصائص، منها: الدقَّة والوضوح والعلمية... تجعله هذه الخصائص يتقدم باتجاه موضوعه من موقعين: موقع الواقع الاجتماعي العياني وموقع صورة لبنان في المستقبل، كما هي مرسومة في المشاريع التي أعدَّها أطراف الصِّراع المحتدم في حرب أهلية متمادية.. وينتهي إلى نتائج مستخلصة، يرى في ضوئها، بوضوح تام، أن ثمة حلين اثنين للأزمة اللبنانية، فإما الحل الطائفي المبقي على العلة، وإما الحل الوطني الديمقراطي الذي من شأنه أن يوفر الحل الصحيح، باستئصال العلة من جذورها، أي من بنية النظام السياسي.

وفي الموضوع الرابع، يبحث المؤلِّف ظاهرة التمرُّد والتحدِّي في الشعر اللبناني، متخذاً معلِّم العمار السابق، ومعلِّم اللغة العربية لاحقاً: الشاعر الجنوبي فؤاد جرداق (١٩٠٩ ـ ١٩٦٥)، أنموذجاً، فيبحث، في ملامح من سيرته ونماذج من شعره، بوصفه المجسِّد الحي لهذه الظاهرة، وذلك خلال رسم الصور التي يشكلها إنتاجه الأدبي، إضافة إلى ممارسته الاجتماعية العلمية.

يستطيع راسم هذه الصُّور، كما يقول المؤلف، من خلال شبكة من الخطوط المعقَّدة، أن يقع على خطين/محورين يشكلان وجهي عملة واحدة، وهما: خطٌّ يمثل مواقف التمرُّد على جميع المؤسسات القائمة في مجتمعه.. وخطٌّ يمثل مواقف الانحياز إلى مواقع المناضلين من أجل العروبة وحرِّية الوطن وسيادته، وحرِّية الإنسان وكرامته.

وعندما يدعو جرداق إلى نظام بديل يقوم على أسس العدالة والديمقراطية، يلتقي، كما يبدو ذلك واضحاً، مع المفكِّر مهدي عامل، وهكذا

تتكامل الرؤية: الشاعر والمفكر يسريان معاً، ولكل أداته، وهما يلتقيان في رسم صورة الحل الوطني البديل من الحل الطائفي الصانع أزمة دائمة. وهذا ما يريد المؤلِّف الوصول إليه في عرض ملموس للواقع والرؤى إليه.

في الموضوع الخامس، يرحل المؤلف مع الشعر إلى أحد مجاري الحياة العربية المشحونة بالأحداث الجسام والمعضلات العملاقة. وهو، أي هذا المجرى، على وجه من الخطورة لم تعرفه الحياة العربية في سياق تاريخها المعاصر. وينطلق المؤلف، في رحلته، معتقداً بأنَّه قد مضى إلى غير رجعة زمن الفصل التعسُّفي بين هموم الشاعر وبين ما يخترم مجتمعه من هموم.

يبدو كأنَّ المؤلِّف يدرك صعوبات هذه الرِّحلة، فيكون عنوان موضوعه: «تمهيد لرؤية أثر القضية الفلسطينية على الشعر الحديث في لبنان»، ويبدو واضحاً أن هذا الموضوع يعالج القضيَّة نفسها التي بحثها الموضوع الثاني، وإن تكن المعالجة، هنا، وجدانية، فقد كانت، في ما سبق فكرية. وهكذا تلتقي الرؤيتان: الفكرية والوجدانية بشكل ملموس، فتضاف رؤى الشعراء: خليل حاوي وأدونيس ومحمد علي شمس الدين والياس لحود... إلى رؤية الأديب المفكر رئيف خوري.

وفي الإطار نفسه، من البحث والاهتمام، يبرز الموضوع السادس، في موقعه، إذ إنه يعالج الواقع الذي صارت إليه القضية الفلسطينية، انطلاقاً من رؤية تقول: إنَّنا «ملزمون بالعودة إلى قاموسنا السياسي الحقيقي، غير الضَّال أو المزوَّر، الذي أمضينا عمرنا الطويل في التعامل النزيه مع مفرداته ومقولاته المحدَّدة بوضوح ودقة، وذلك ليستقيم لنا، من بعد، أمر الخوض في شأن التطبيع الثقافي مع العدو «الإسرائيلي» في علاقته العضوية، مع بقية الشؤون التي تشكِّل الصراع العربي ـ الصهيوني وجملة ميادينه الظاهرة أو المموَّهة.

إشكاليَّة الشَّاعر/الباحث المنهجي

يبدو حبيب صادق، في مؤلفه الجديد، باحثاً منهجياً، وقد عرفناه شاعراً وجدانياً. ويبقى، ونحن نمضي في قراءة الكتاب، في ذهننا تساؤل: أيكون

الشاعر الأديب باحثاً منهجياً ناجحاً في استخدام لغة دقيقة الدلالة، لأداء رؤية موضوعية وفق خطة متماسكة الخ...، بعدما تعوَّد أن يجوز باللغة إلى ضفاف تتجدَّد على الدوام، إذ إن ما يرسمها هو عين ثالثة ترى ما لا يراه الآخرون؟

ما يجعل هذا التساؤل ذا أهمية، في هذا السياق، علمنا أن حبيب صادق: الشاعر الوجداني، ليس طارئاً على ميدان الشعر؛ إذ إنَّه ميدانه الأصيل والأثير. فكتبه جميعها: شعراً ونثراً أدبياً (فصول لم تتم ـ ١٩٦٩ ـ زمن القهر والغضب ـ ١٩٧٣ ـ جنوباً ترحل الكلمات ـ ١٩٨٠ ـ شهادات على حاشية الجنوب ـ ١٩٨١ ـ مطالع النور ـ ١٩٨٢ ـ كلمات للوطن والحرية ١٩٨٦) تقول ذلك. يطرح هذا القول إشكالية الشاعر/الباحث المنهجي. وتأخذ هذه الإشكالية بعداً أشد حدَّة، عندما نعلم أنَّ المؤلِّف يؤدِّي دور المنشط الثَّقافي على ساحة الثقافة الوطنية اللبنانية، ويكاد هذا الدور يستحوذ على جل وقته، ويؤدِّيه صاحبه بتفانٍ وجداني يجعله قريباً من الأداء الشعري، إن لم يكن نمطاً من السلوك الرسالي يجعل من صاحبه صانع ثقافة وطنيَّة.

في هذا النَّمط، من السلوك الرِّسالي، يكمن سر نجاح حبيب صادق في تجاوز الاشكاليات آنفة الذكر، فكان باحثاً موضوعياً، في الوقت نفسه الذي بقي فيه، في مؤلَّفاته الأخرى، شاعراً وجدانياً رقيقاً، ومنشِّطاً ثقافياً، يواكب الحركة الثقافية، ويرعى الناهض منها، إن لم نقل يسهم في صنع الكثير من مظاهره.

يبدو أنَّ دور الشاعر الوجداني: كتابةً وسلوكاً وتنشيطاً ثقافياً، ودور الباحث يلتقيان لأداء مهمَّة أساسية هي مهمة المثقف الذي يعي واقعه ويسعى إلى فهمه وتغييره. وأياً تكن طبيعة نشاطه، فكلُّ الجهات الوطن، وإليه تكون رحلات الكلمات والفعل.

أداء مهمَّة الباحث المنهجي

وإذ ينهض حبيب صادق بأداء مهمة الباحث، يحدِّد موضوعه بدقة، فيسمِّي بحثه، في بيان رؤية أثر القضية الفلسطينية على الشعر الحديث في لبنان،

تمهيداً فحسب، ويصفه بأنه مشروع دراسة ليس إلّا. وهذه الدقة تتجلَّى في مختلف فصول الكتاب، ففي مقدِّمة البحث الرامي إلى بيان الرؤية إلى مستقبل لبنان، من موقع حاضره، يصف المؤلَّف بأنه محاولة في هذا السبيل لا غير.

وهذا التحديد الدقيق لموضوع البحث وأدواته نلمسه في غير مكان من الكتاب. ففي مقدمة كلامه على حسين مروة: ملامح من السيرة وإشارة إلى المنجزات، يقول: «وأرى لزاماً عليَّ تسجيل ملاحظة منهجية لعلَّها تساعد في تبرير إقدامي على إرسال كلمة متواضعة. فالكلام، هنا، لا يعدو كونه مقاربة أو مدخلاً ليس غير. وبتعبير أدق ليس بحثاً منهجياً، وذلك لأني لم أعثر، هنا، في الولايات المتحدة، على المراجع المختصَّة التي يتعيَّن على كل باحث اعتمادها في دراسة لها صفة المنهجية...». والقول، ذو الصفة نفسها، يتكرَّر في مقدمة الكلام على فؤاد جرداق.

وهذا يعني أن المؤلِّف يريد للتعبير أن يكون أكثر دقة، ويستند إلى مراجع ووثائق لازمة تعطي البحث صفة المنهجية، المستندة إلى خطة متماسكة مرسومة بدقة، بغية الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها الموضوع المحدَّد بوضوح وموضوعية، يكونان ثمرة الصَّبر على جمع المادَّة من مظانِّها وتنسيقها وتبويبها ودراستها، وصولاً إلى خلاصات محدَّدة، وذلك جميعه يؤدَّى بلغة دقيقة الدلالة، رشيقة العبارة، أنيقتها، متينة التعبير بسيطته.

شخصيَّات تمثِّل المثقَّف العضوي

يختار حبيب صادق شخصيات لسان حال كل منها يقول، على لسان الشاعر فؤاد جرداق:

ما جنى الشاعر الطليق؟ أجبني يا ظلام السجن الذي أنا فيه!
عذَّبته الأيَّام طفلاً، فقاسى كل هول، والبأس درع تقيه

يبدو أن المؤلِّف، عندما يختار مثل هذه الشخصيات ليتحدث عنها: سيرة وإنجازات، يريد أن يشدِّد على عضوية رجل الأدب والفكر في مجتمعه، من حيث تلازم فكره المتجسِّد في نصوصه ومواقفه، في سعي إلى فهم قضايا

الواقع التي عاناها هؤلاء: تنظيراً وسلوكاً، بغية الإجابة عن أسئلته الملموسة بصدق من يمتلك شمولية الرؤية ووضوحها.

وكما لا يخفى، فإن مثل هذه الإجابات تقتضي توافر حرِّية الفكر والقول والعمل، وإلَّا لحدثت المواجهة. وهذا ما كان. فقد واجه هؤلاء الرِّجال عالمهم، ورأوا إلى مختلف قضاياه ومسائله، وسلكوا: قولاً وفعلاً وفق ما تكوَّن لديهم من رؤى، فاصطدموا بقوى السلطة على مختلف المستويات. وعانوا آثار هذا الصِّدام ونتائجه بصنوفها المتعددة: اضطهاد، سجن، تصفية...

قضايا خطيرة

الحقيقة أن الكلام على هذه القضايا يقتضي توافر شروط منها: مناخ من الحرية يتم الاتِّصال خلاله، بلغة قاموسنا الحقيقي، وتتم الرؤية إليه في أضواء فكر أصيل منتم إلى أهل ووطن، وفي مناخ من الحرِّية تتوافر فيه هذه الشروط، ويمكن للقول الصادق أن يكون ويفعل، ولعل هذا ما يسهم في تحقيقه الكتاب موضوع حديثنا، من خلال إثارته عدة قضايا تتفرع عن الإشكالية الأساسية. ومن هذه القضايا:

ـ المثقف والسُّلطة

الحقيقة أن هذا المؤلَّف يطرح قضايا خطيرة، منها قضية: المثقف والسلطة. إذ إنها تبدو، من خلال سطوره، في أسطع تجلياتها.

ـ انقلاب المقاييس

ولا يبدو بعيداً عن الصواب القول: إن إثارة هذه القضية، بشكل ملموس: سيرة وإنجازات، أمر على قدر كبير من الأهمية وضروري في هذه المرحلة من تاريخنا التي بات يسود فيها معجم ثقافي وسياسي قلبت فيه معاني القيم والكلمات، وصارت التبعية، بمختلف أشكالها، تقدُّماً، وصار استظهار المعلومات، أو رصُّها على الورق، بوصفها كلاماً على النص الفلاني، نقداً طليعياً. وفي الجانب الآخر، صارت الإجابة عن الأسئلة التي يطرحها الواقع تخلُّفاً و«موضة» قديمة لا تصلح لعالم التِّسعينيَّات.

الحقيقة أنه، بعد أن غدا مثل هذا التغيُّر في المعجم، مطروحاً بقوة، وبعد أن صار أصحابه يريدون له، بما يملكون من سلطان ثقافي، أن يسود، غدت العودة إلى القاموس الحقيقي ضرورة تاريخية يحتِّمها واجب الانتماء إلى وطن وأهل. وفي تقديرنا، أنَّ هذه العودة قد تشكِّل المناخ الطبيعي والصحي لإثارة قضايا الواقع ومناقشتها، ولعله المناخ الذي يريد حبيب صادق لمؤلَّفه أن يتحرك فيه وأن يسهم في تكوينه في الوقت نفسه، طارحاً العديد من القضايا التي تحمل صفتي: الأهمية والخطورة.

ـ العلاقة بالغرب

ولعلي لا أبعد عن الصواب عندما أقول: من القضايا الأساسية في الكتاب قضية العلاقة بالغرب ذي الوجهين: الحضاري والاستعماري، بوصفها الإشكالية التي تحكم نهضة الوطن العربي، وذلك أن مختلف القضايا التي يطرحها الكتاب للنقاش تبدو كأنها تتفرع من القضية الأساسية تلك.

ـ دراسة التراث

دراسة التراث العربي الإسلامي، ومكانها في الصراع الثقافي/الاجتماعي الراهن. إن هدف مثل هذه الدراسة ينبغي أن يكون الإسهام في الوصول إلى تكوين ثقافة أصيلة ومعاصرة في آن. إذ إن هذه الثقافة وحدها تستطيع تجسيد واقعنا التاريخي والرؤية إليه في نصوص تكشف علاقاته، وتجيب عن أسئلته، وترسم خطى تقدمه. وهذا يقتضي امتلاك منهج نقدي ذي منظور تاريخي، يستخدمه أدباء ومفكِّرون لا تنقصهم الموهبة والثقافة والتفاعل الحضاري مع مختلف روافد الحضارة الإنسانية. ويبدو حسين مروة من خلال عرض حبيب صادق لآرائه ومناقشته لها، أحد هؤلاء الأدباء والمفكِّرين الذين نهضوا لأداء هذا الواجب في سعي رسالي استمر طوال العمر.

ولا يخفى أن هذه القضية تبلغ من الأهمية درجة كبرى في واقع تواجه فيه ثقافته أخطاراً عظمى، مثل التبعيَّة والهجانة والانقراض... والتطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني.

ـ التَّطبيع الثقافي

في هذا السياق من البحث، تطرح قضية التَّطبيع الثقافي مع العدو الصهيوني نفسها بحدَّة وإلحاح، بوصفها أحد مظاهر الإشكالية الأساسية: العلاقة مع الغرب الغازي حياتنا على مختلف الصعد. وليس من شك في أنَّ هذه القضية تقتضي المواجهة السريعة، وبمختلف السُّبل، لأنَّها التجلِّي الرَّاهن والدَّاهم للخطر الأساسي. ومن هذه السُّبل رصد ظاهرة التطبيع ووصفها وبيان معناها وأبعادها وأهدافها وأشكال تجلِّيها وكشف القوى العاملة من أجل سيادتها، بغية الوصول إلى تحديد سبل مواجهتها بشكل عملي. وهذا ما يفعله حبيب صادق، في كتابه، بصبر الباحث المتأنِّي وموضوعيته.

ـ القضيَّة الفلسطينية

لعلَّ حبيب صادق أدرك أهمية هذا الخطر، ورأى ضرورة العودة إلى جذوره، فضمَّن كتابه دراسة تعالج قضية فلسطين معالجة تاريخية ملموسة من خلال الكلام على سيرة مناضل جسور، هو رئيف خوري وانجازاته، وفي بحثه لهذه القضية يجيب المؤلف عن السؤالين الآتيين: «كيف رأى رئيف خوري إلى الصهيونية؟ وكيف ناضل في مقاومتها؟»، وذلك، كما يقول، «لسببين اثنين: يتمثَّل أوَّلهما في تلك المنزلة الخاصة التي احتلَّتها القضية الفلسطينية في فكر وضمير صاحبنا.. ويتمثل ثاني السببين في تلك الأولوية التي استأثرت بها، والتي لا تزال تستأثر بها».

يبدو رئيف خوري متفرِّداً في فهم طبيعة الصهيونية وفي نضاله ضدَّها. يلمس حبيب صادق هذا التفرُّد من خلال العودة إلى الوثائق، ويبرز موقف خوري «السديد الثابت، البليغ في نطقه»، والذي «لم يجلب لصاحبه ما يستحق من تكريم وتقدير، خصوصاً من رفاق الطريق، بل جلب عليه، من هؤلاء الرفاق بالذات، الأذيَّة والتشهير، وما ذلك إلَّا عن ضيق أفق في الثقافة وفي السياسة على السواء، أصاب الحركة التقدمية عندنا في تلك الفترة، وأدَّى إلى انعزالها عن الحركة الشعبية...».

هذا الموقف تمثل في تعبير رئيف خوري عن عدم موافقته على الموقف السوفييتي المؤيد لمشروع التقسيم، «فكتب بأرقٍّ مفردات اللباقة والكياسة هذا القول: «... ولم أجد تجاه العرب، في حقل السياسة الخارجية التي يتبعها الاتحاد السوفييتي، ما لا أؤيده سوى اقتراع المندوب السوفييتي، في جامعة الأمم المتحدة، على تقسيم فلسطين.. ولو أنه دلو ألقي في ثلاثة وثلاثين دلواً.. ولعن الله من فتح البئر...».

يستكمل الباحث دراسة هذه القضية في بحث آخر يضيف إلى رؤية المفكِّر ونضاله رؤى الشعراء المبدعين. فكأن حبيب صادق يريد أن يستكمل عناصر الرؤية إلى هذه القضية الأهم في تاريخنا الحديث، من مختلف جوانبها، فيتقصَّى رؤية المفكر/المناضل والشعراء المبدعين. وهذه الرؤى جميعها تشدِّد «على ضرورة الاتحاد شرطاً للاستقلال»، وعلى أن الجماهير تصنع تاريخها حاسمة الصِّراع بين القديم الشائخ والجديد الشاب لمصلحة هذا الجديد في المجتمع. وأن قضية حرية كل أمة منوطة بها لا بغيرها.

ـ القضيَّة اللبنانيَّة

هذه الحقائق تفضي إلى بحث قضية أخرى لا تقل عن القضية آنفة الذكر، أهمية وخطورة. عنيت القضية اللبنانية التي بدأت منذ إنشاء لبنان على أساس طائفي، وليس على أساس وطني، ويتم بحث هذه القضية من خلال تقصِّي رؤيتين: رؤية فكريَّة لدى مهدي عامل، ووجدانيَّة لدى فؤاد جرداق.

والمؤلِّف، هنا، يحرص على أن يكون موضوعياً في تكوين رؤية شاملة يشترك في تكوينها العقل والوجدان تكشف طبيعة النظام الذي تكوَّن وحتمية حدوث مأزقه الراهن وسبل تجاوز هذا المأزق.

إن فؤاد جرداق مثله مثل الرجالات الآخرين، يشكِّل وطنه همَّه الأساسي، فيقول:

لبنان باعث محنتي وبلائي وأساس كل ظلامتي وشقائي

ولكن سراحين الذئاب تسوس هذا الوطن كأن لم يكفِ ما فعله المستعمر به:

ولم يكف «لندنه» وما فعلت بنا و «اسطنبوله»، في الجور أو باريسه

فيكون التغيير ضرورة على الرغم من الطغاة وأعوانهم:

قل للطغاة سيبعث الوطن الذي بعثت من الحرف القديم نفوسه
أبني التحرُّر وجِّدوا جبهاتكم يوم النضال فقد يثور وطيسه

الصَّوت الرَّائي...

يبدو كأنَّ حبيب صادق، في إثارته هذه القضايا وبحثها، يريد أن يعيد صوت فؤاد جرداق الرائي إلى توحيد يحرِّر، وسبيله إلى ذلك، هذه المرَّة، مقاربات ملموسة تضيف إلى علميَّة المنهج عمق التفكير وأصالته والعودة إلى القاموس الثقافي السياسي الحقيقي.

❐❐❐